(٤)

" نفرٌ من الجنّ يستمعون القرآن الكريم ويسلمون ويدعون قومهم إلى دين الإسلام، فعلى كفّار الإنس الاعتبار ، وعلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم الاصطبار"

الآيات (٢٩ - ٣٥)

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

وإذ: واذكر إذ[1].

صرفنا إليك: الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة[2]، أي أقبلنا بهم إليك وإلى الاستماع منك[3] .

نفراً: النفر بالتحريك ما بين الثلاثة إلى العشرة[4]، قال بعضهم كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، وقال بعضهم كانوا تسعة[5]، ونصيبين مدينة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام[6].

من الجن: قال ابن عباس : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ . وكانوا يقعدون مقاعد للسمع فلمّا بعث الله محمداً ﷺ حرست السّماء حرساً شديداً، ورجمت الشّياطين، فأنكروا ذلك وقالوا: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٢٩ والجلالين.

[2] مفردات الراغب الأصفهاني : " صرف " ٢ / ٣٦٧ .

[3] مفردات الراغب الأصفهاني : " صرف " ٢ / ٣٦٧ .

[4] انظر لسان العرب : " نفر " .

[5] انظر تفسير الطبري ٢٦ / ٢٠ .

[6] معجم البلدان : " نصيبين " .

بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [1] فقال إبليس : لقد حدث في الأرض حدث. واجتمعت إليه الجنّ فقال: تفرّقوا في الأرض فأخبروني ما هذا الخبر الذي حدث في السماء. وكان أول بعث ركب من أهل نصبين ، وهى أشراف الجنّ وساداتهم. فبعثهم الله إلى تهامة، فاندفعوا حتى بلغوا الوادي، وادي نخلة[2] فوجدوا نبي الله ﷺ يصلي صلاة الغداة[3] ببطن نخلة، فاستمعوا. فلمّا سمعوه يتلو القرآن قالوا: أنصتوا. ولم يكن نبي الله ﷺ علم أنّهم استمعوا إليه وهو يقرأ القرآن: ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [4] .

فلما حضروه: فلمّا حضروا القرآن ورسول الله ﷺ يقرأ[5]

قالوا أنصتّوا: النّون والصّاد والتّاء كلمة واحدة تدلّ على السّكوت. وأنصت لاستماع الحديث، ونصت ينصت[6] قالوا: صهْ[7] بمعنى اسكت[8] قال قتادة: قد علم القوم أنهم لن يعقلوا حتّى ينصتوا[9] .

إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى: لم يذكروا عيسى لأنّ عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التّحليل والتّحريم. وهو في الحقيقة كالمتمّم لشريعة

---

[1] سورة الجن آية : ١٠ .

[2] نخلة: بفتح النون وسكون المعجمة، موضع بين مكة والطائف .

قال البكري : على ليلة من مكة ، وهي الّتي ينسب إليها بطن نخل، فتح الباري ٨ / ٦٧٤ والمراد نخلة اليمانية، وادٍ من الحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين، إحدى الليلتين من نخلة يجتمع بها حاج اليمن وأهل نجد، وبه مسجد لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– وبه عسكرت هوازن يوم حنين، معجم البلدان : " نخلة اليمانية".

[3] المراد صلاة الفجر ، فتح الباري ٨٧ / ٦٦٩ حديث رقم ٤٩٢١ .

[4] تفسير الطبري ٢٦ / ٣٠ وانظر فتح الباري ٨ / ٦٦٩ حديث رقم ٤٩٢١ .

[5] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٢ .

[6] معجم مقاييس اللّغة : " نصت " ٥ / ٤٣٤ .

[7] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٢ .

[8] المعجم الوسيط : " صه " .

[9] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٢ .

التّوراة. فالعمدة هو التّوراة، فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل ، حين أخبره النبي ﷺ بقصّة نزول جبريل عليه أوّل مرّة فقال: بخ بخ[1] هذا النّاموس الذي كان يأتي موسى، ياليتني أكون فيها جذعا[2].

أجيبوا داعي الله : أجيبوا رسول الله محمّدا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله[3].

وآمنوا به: وصدّقوه فيما جاءكم به وقومه من أمر الله ونهيه وغير ذلك ممّا دعاكم إلى التّصديق به[4].

ويجركم: وينقذكم[5].

وليس له من دونه أولياء: وليس له من دون ربّه نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه ربّه على كفره به وتكذيبه داعية [6].

واذكر يا محمّد لقومك كفّار مكّة على سبيل التقريع لهم والتوبيخ إذ صرفنا إليك، وأرسلنا نفراً من الجنّ دون العشرة يستمعون القرآن الكريم بوعي واهتمام، وأنت أيّها الرّسول الكريم والنبي العظيم تؤمّ أصحابك لصلاة الفجر في وادي نخلة اليمانية، بين مكّة المكرّمة والطّائف. فلمّا حضروا القرآن الكريم وأنت ترتّله ترتيلاً قال بعضهم لبعض : اسكتوا كي نستمع القرآن بآذان واعية، وكي نتدبّره بعقول نيّرة، وكي نستقبله بقلوب مطمئنّة. وقد كان كلّ ذلك.

---

[1] بخ : كلمة تقال عند الرّضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر.
تقول : بَخْ ، وبَخ . وتقول مكرّراً : بَخْ بَخْ وبَخٍ بَخٍ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٨٦ وجذعاً أي شاباً عند ظهورها.

[3] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٢ .

[4] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٢ .

[5] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٢ .

[6] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٣ .

فلما قضيت تلاوة القرآن الكريم رجع النّفر من الجنّ إلى قومهم ينـــذرونهم عـــذاب الله تعالى إن لم يتّبعوا محمداً ﷺ ، ويبشرونهم ثوابه عزّ وجلّ إن هم اتّبعوه عليه الصّلاة والسّلام، فآمنوا واعملوا صالحاً.

قال النّفر من الجنّ يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً سماويّا يرتّلُ ترتيلاً، وقد أنزل من بعد كتـــاب موسى عليه السّلام التّوراة، مصدّقاً لما نزل قبله من كتاب سماوي كالتّوراة التي أوحاهـــا الله تعالى إلى موسى عليه السّلام، والإنجيل الذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام، يهـــدى إلى الحّق المبين، وإلى الطّريق المستقيم، دين الإسلام العظيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله تعـــالى محمّداً ﷺ وآمنوا به يغفر الله تعالى لكم من ذنوبكم وينقذكم من عذاب أليم يوم القيامة.

ومن لا يجب داعي الله تعالى؛ ومن لا يتّبع محّمدا ﷺ ؛ فليس بمعجز الله تعالى فى الأرض، وليس له من دون الله تعالى نصراء يصرفون العذاب عنه أو يخفّفونه. إن أولئك الأشقياء الّذين لا يتّبعون محمّدا ﷺ في ضلال مبين. وبُعْد واضح عن الطّريق القويم، والصراط المستقيم.

والعجيب في الأمر أنّ الجنّ يستمعون القرآن الكريم ويتدبّرونه ويتّبعون محّمـــدا ﷺ، وأنّ كفّار مكّة، وهم قوم المصطفى صلّى الله عليه وسلم لا يسمعون لهذا القرآن الكـــريم أصـــلاً ويكذّبون محّمداً ﷺ .

إن الطّرفين يقفان على طرفي نقيض جنسًا وموقفاً. والأعجب أنّ الجنّ يؤمنون، والإنـــس يكفرون.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

أو لم يروا: أغفلوا و لم يروا[1] والهمزة للاستفهام التّوبيخي[2].

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٣٢ .

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٣٢ .

و لم يعي بخلقهنّ: و لم يعجز عن إنشائهنّ واختراعهنّ وإحداثهنّ[1].

أعميَ كفار مكّة منكرو البعث و لم يروا، أغفَلوا و لم يتبيّنوا أنّ الله تعالى الذي خلق السّماوات والأرض و لم يعجز عن إيجادهنّ ابتداءً، أعمُوا وغفَلوا فلم يروا و لم يتبينوا أنّ الفعّال لذلك بقادر على أن يحيي الموتى يوم القيامة. إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس بنصّ القرآن الكريم[2]، وإنّ الله تعالى الموجد لكلّ المخلوقات ابتداءً،قادرٌ على إعادة إيجاد المخلوقات مرّةً أخرى. إنّ الله تعالى قدير على كلّ شيء، وإنّه يستوي في حقّ الله تعالى الخلق الأوّل والخلق الآخر. وإنّ الإيماء إلى الخلق الآخر يخاطب النّاس باللّغة التي يفهمون لأنهم يسهل عليهم العمل الآخر بسبب ضعفهم وعجزهم وقلّة حيلتهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ويوم يُعْرض الّذين كفروا بالبعث على نار جهنّم؛ يقال لهم على سبيل التّقريع والتّوبيخ: أليس هذا العذاب الذي كنتم تنكرونه في الحياة الدّنيا بالحقّ وأنتم الآن تصطلون ناره، قالوا بلى وربّنا إنّ كلّ ما كنّا نوعد حقّ، قال فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكفرون به في الحياة الدّنيا من بعث وحساب وجزاء.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٢٣ .

[2] انظر الآية ٥٧ من سورة غافر.

بلاغ: هذا القرآن والتّذكير بلاغٌ لهم وكفاية إن فكّروا واعتبروا فتذكّروا [1].

فاصبر يا محمد على أذى قومك كما صبر أولو العزم من الرّسل وأهل الصّبر الشّديد والعزم الأكيد منهم. وأولو العزم من الرّسل هم الّذين نصّت عليهم الآية الكريمة السّابعة من سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة، والآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الشّورى المكّيّة الكريمة. وأولو العزم من الرسل مرتّبون تأريخياً هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. وإنّ عليك يا محمّد ألاّ تستعجل لقومك العذاب، وإن هم استعجلوه سفهاً منهم وجهلاً. كأنّ هؤلاء المنكرين للبعث المستهزئين بعذاب يوم القيامة يوم يرون ما كانوا يوعدون في الحياة الدّنيا من عذاب. ويعانون من شقاء، لم يلبثوا في الحياة الدّنيا إلاّ ساعةً واحدةً من نهار. وذلك لأنّ العذاب الشّديد آنذاك أنساهم حقيقة لبثهم في الحياة الدّنيا.

إنّ هذا القرآن الكريم بلاغ للقاصي والداني والحاضر والباد، ولا يُهْلَك إلاّ القوم الفاسقون، ولا يَصْلَىْ نار جهنّم إلاّ الكافرون الخارجون عن الّصراط المستقيم، فتوبوا إلى الله تعالى أيّها النّاس جميعاً لعلّكم تفلحون.

---

[1] تفسير الطبري ٢٦ / ٢٤ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٣٤ .

التعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١ - سورة الأحقاف من المكي من القرآن الكريم الذي نزل على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قبل الهجرة [١].

٢ - عدد آيات السّورة الكريمة خمس وثلاثون آية، وعدد كلماتها ثلاثمائة وأربع وأربعون كلمة، وعدد حروفها ألفان وثلاثمائة حرف[٢]

٣ - تسمّى السّورة الكريمة سورة الأحقاف لقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الحادية والعشرين: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾

٤ - سورة الأحقاف آخر سور آل حم السّبع التي رتّبت في المصحف الشّريف وفق ترتيب نزولها[٣].

٥ - تتّفق سورتا الأحقاف والجاثية في الآيتين الكريمتين الأوليين. قال تعالى ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.

٦ - سورة الأحقاف كغيرها من السّور الكريمة التي تبدأ بالحروف المقطّعة وتنتصر للقرآن الكريم. إنّ السّورة الكريمة تنتصر للقرآن الكريم على الفور وعلى التّراخي. وبذلك يشكّل القرآن الكريم أحد موضوعات السّورة الكريمة. لقد جاء بعد الحرفين المقطعين

---

[١] انظر الإتقان ١/ ٤٣ وتفسير ابن كثير ٧/ ٢٥٨ والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٦ / ٢ .

[٢] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٦ / ٢ .

[٣] الإتقان ١ / ٤٣ .

الحديث عن القرآن الكريم. قال تعالى : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ إنّ تنزيل هذا الكتاب العزيز إنّما هو من الله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. وكفّار مكّة إذ تُتْلَى عليهم آيات القرآن الكريم قالوا هذا هو السّحر الواضح القادر على أن يفرّق بين كلّ إنسانٍ وبين أحب النّاس إليه. جاء في الآية الكريمة السّابعة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ بل إنّ كفار مكّة يزعمون أنّ محمّداً ﷺ هو الذي افترى القرآن الكريم من ذاته، ويؤمر عليه الصلاة والسّلام بأن يقول لأولئك الكافرين بأنّه علية الصّلاة والسّلام ليس أوّل رسولٍ بعثه الله تعالى إلى البشر، بل قد سبقه كوكبة من الرّسل عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، فلماذا يكذّبونه عليه الصّلاة والسّلام ويكذبون القرآن الكريم. إنّه علية الصّلاة والسّلام إنّما يتّبع ما أوحى الله تعالى إليه وإنّه نذير واضح الإنذار للقوم الكافرين. وتقارن السّورة الكريمة بين موقف كفّار مكّة قوم المصطفى ﷺ من القرآن الكريم، ومن الرّسول العظيم ﷺ ، ومن الدّعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وإصرار القوم على الشّرك، الظّلم العظيم، وبين موقف واحدٍ من أتباع موسى عليه السّلام من بني إسرائيل. لقد شهد هذا الشّاهد من بني إسرائيل على أنّ التّوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السلام هي موحًى بها من عند الله تعالى، وصدّق موسى عليه السلام ، ووحّد الله تعالى وأفرده عزّ وجلّ بالعبادة. إنّ الله تعالى لا يهدى إلى الصّراط المستقيم أولئك الظّالمين المصرّين على هجر طريق الحقّ وسلوك طريق الباطل. وتتجلّى أسوأ صور الباطل في الشّرك. وهكذا يتبيّن أنّ قضيّة التّوحيد هي الهدف من إرسال الرّسول الكريم ﷺ وإنزال القرآن الكريم. جاء في الآيات الكريمات من الثّامنة إلى العاشرة قول الحقّ جلّ وعلا

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

ويتمادى كفّار مكّة في غيهم وبغيهم. ويقارن الكفّار المغرورون بقومهم وثرائهم بينهم وبين المؤمنين الضّعفاء الفقراء ويقرّرون أنّ القرآن الكريم لو كان خيراً ما سبقهم أولئك المؤمنون إليه، كما يقررون بناءً على ذلك أنّ القرآن الكريم، حسب زعمهم، إفك قديم وأساطير الأوّلين، وتبيّن السّورة الكريمة أوجه الشّبة المتعدّدة بين كلّ من القرآن الكريم والتّوراة. جاء في الآيتين الكريمتين الحادية عشرة والثّانية عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

وإن هذا الكتاب العزيز الذي استحوذ على طالبي الحقّ من الإنس استحوذ كذلك على طالبي الحقّ من الجنّ. إنّ النّفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن الكريم يرتّله المصطفى ﷺ ترتيلاً بادروا إلى اعتناق دين الإسلام ودعوة قومهم إلى اعتناقه. جاء في الآيات الكريمات من التّاسعة والعشرين إلى الثّانية والثّلاثين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

ويتضح من المقارنات كلّها أنّ الكافرين هم المغبونون في كلّ صفقة.

٧ - من الصّفات التي تتميّز بها سورة الأحقاف الكريمة المقارنات بين الفئات المتعدّدة المختلفة في الصفات. وكلّ هذه المقارنات يتبيّن منها أنّ الكافرين هم الأخسرون أعمالاً. إنّ السّورة الكريمة تضع في كفّةٍ موقف كفّار مكّة من القرآن الكريم، والرّسول ﷺ ، ومن دعوته عليه الصّلاة والسّلام إلى نبذ الشّرك وتوحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وتضع في كفة أخرى موقف واحدٍ من بني إسرائيل يؤمن بالتّوراة، ويصدق موسى عليه السلام، ويوحّد الله تعالى ويفرده عزّ وجلّ بالعبادة. بل إنّ هذا الشّاهد من بني إسرائيل الّذي قد يكون الصحابي عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قد بادر إلى اتباع محمد ﷺ منذ هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة. ثم إنه رضي الله تعالى عنه واحدٌ من المبشرين بالجنّة. إنّ واحداً من مؤمني بني إسرائيل يبادر إلى اتّباع محمدٍ ﷺ ، وإنّ كفار مكة قوم المصطفى ﷺ يصرون على كفرهم وعنادهم واستكبارهم. بل إنّ السورة الكريمة في معرض التّقريع لكفار مكة وتبكيتهم تتحدث عن النفر من الجن الّذين استمعوا القرآن الكريم يرتله المصطفى ﷺ وهو يؤم أصحابه لصلاة الفجر، فبادروا إلى اعتناق الإسلام وإلى دعوة قومهم إلى اعتناقه. ولا يكاد العجب ينتهي من كفار مكة قوم المصطفى ﷺ حينما يوصي بعضهم بعضاً بعدم السماع للقرآن الكريم، في حين يحرص الجن على الاستماع له والسكوت في أثناء التلاوة كي يتدبروه.

وحينما يتعالى كفار مكة الأثرياء، والسادة على فقراء المسلمين الذين بادروا إلى الإيمان واتباع هدي القرآن الكريم؛ تخصّ السّورة الكريمة القرآن الكريم بمجموعة من النّعوت الّتي تدحض اتهامهم للقرآن الكريم؛ بأنّه كذبٌ قديم وأساطير الأولين. إنّ القرآن الكريم

مصدّق لكتاب موسى عليه السلام التّوراة التي يأتمّ بها بنو إسرائيل فهي الإمام، وهي كذلك الرّحمة للمؤمنين منهم. والقرآن الكريم أنزله الله تعالى بلسانٍ عربيّ مبين إماماً للمسلمين ورحمة لهم.

ولّما كان كفّار مكة المتعالون على الفقراء والضعفاء من المؤمنين؛ مفتونين بقوتهم وبثرائهم، فإنّ السّورة الكريمة تقرّر إهلاك الله تعالى الكثير من الأمم الطاغية حول مكّة المكّرمة. ويأتي على رأس الأمم الطاغية عاد الّذين كانوا يعلنون على رؤوس الملأ بأنهم لا أحد أشد قوة منهم. لقد أهلك الله تعالى عاداً في جنوب الجزيرة العربية وسبأ وغيرهما، كما أهلك ثمود في شمال الجزيرة العربية وقوم لوط وغيرهما.

ويلحق بهذه المقارنات التي هي في غير صالح كفار مكة حديث السّورة الكريمة عن برّ الوالدين بعد حديثها في توحيد الله تعالى، وعن امتثال أبناء المؤمنين لأمر الله تعالى لهم ببّر الآباء. وبالشكر لله تعالى على نعمه العظيمة عليهم، وفي مقدمتها نعمة الإيمان، وعن عدم امتثال الكافرين لأمر الله تعالى ببّر الآباء. إنّ هؤلاء الأبناء يجمعون بين الكفر بالله تعالى وبين عقوق الآباء. وهكذا يتبّين إنّ الحديث عن برّ الوالدين يظهر معه كفّار مكّة مشركين بالله تعالى، غير ممتثلين لأوامره وفي مقدمتها برّ الوالدين والإحسان إليهما[1].

٨ – حثت السورة الكريمة في آخر آياتها المصطفى ﷺ على أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل. والمعروف أنّ أولي العزم من الرّسل خمسة، جاء النص عليهم في الآية الكريمة السابعة من سورة الأحزاب المدنية الكريمة، والآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الشورى المكيّة الكريمة. والمعروف كذلك أنّ محمّداً ﷺ زعيم أولي العزم من الرسل. إنّ أهم ما يتصف به أولو العزم من الرّسل الصّبر بأنواعه.

---

[1] انظر تفسير ابن كثير ٧ / ٢٦٦ في سبب نزول الآية الكريمة السابعة عشرة.

٩ — من الاستعراض السّريع لموضوعات السّورة الكريمة وأهمّ قضاياها تتبيّن وحدتها العضويّة والتّرابط بين قضاياها. علماً بأن الوحدة والتّرابط يتبينان ممّا سبقت كتابته بين يدي التّفسير. ونحن ههنا نكتب الموجز فقط.

بعد ابتداء السّورة الكريمة بالحرفين المقطعين : ﴿ حمٓ ﴾ يأتي الحديث من القرآن الكريم فوراً، كما يأتي الحديث عن انفراد الحق جلّ وعلا بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وعليه ينبغي إفراد الله تعالى بالعبادة ونبذ الشّرك. وهكذا تلفت السّورة الكريمة الانتباه إلى كلٍّ من آي الذكر الحكيم والآيات الكونية. إنّ الله تعالى هو الّذي أنزل القرآن الكريم وخلق الكون كله فينبغي إفراده عزّ وجلّ بالعبادة.

وأمام إصرار كفار مكة على الشرك وتكذيب كلٍ من الرّسول الكريم والقرآن المجيد؛ يتحول السياق إلى المقارنة بين موقف كفار مكة من محمد ﷺ والقرآن الكريم، وموقف واحدٍ من مؤمني بني إسرائيل من موسى عليه السلام والتّوراة. إنّ قوم محمد ﷺ العرب الأقحاح ينكرون أن يكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، وأن يكون محمد ﷺ رسول ربّ العالمين. وإنّ الشّاهد المؤمن من بني إسرائيل يؤمن بالتّوراة ويتّبع موسى عليه السلام . وإذا صحّ أنّ هذا الشّاهد هو عبدالله بن سلام الصحابي الجليل وأحد المبشرين بالجنة، يكون هذا الشاهد قد آمن بكل من موسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، وبكل من التوراة والقرآن. ولا يخفى أنّ هذه المقارنة بين كفّار مكة وبين المؤمن من بني إسرائيل تظهر كفار مكة في الدرك الأسفل من السفه والحمق.

ومما يؤكد سفه كفار مكة وحمقهم المجموعة من النعوت التي خلعتها السورة الكريمة على كل من التوراة والقرآن، إضافة إلى كون القرآن الكريم هو المصدق للكتب السماوية السابقة، وفي مقدمتها التوراة، وإلى كون القرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيٍ مبين، فكيف يغيب على كفار

مكة بلاغة القرآن الكريم وإعجازه وهم أئمة البيان وفرسان الفصاحة. إنّ للكافرين يوم القيامة نار الجحيم. وإنّ للمؤمنين جنات النعيم.

وجاء بعد الدعوة إلى توحيد الله تعالى، الدعوة إلى بر الوالدين والإحسان إليهما، جرياً على عادة القرآن الكريم في التحول من قضية التوحيد إلى بر الوالدين.

ولّما كانت مشقة الوالدة هي الأكبر وبالتّالي فإنّ حظّها من البّر ينبغي أن يكون هو الأكبر فقد كان الحديث عن الوالدة هو الأكبر. وقد فهم العلماء من كون فترة الحمل حتى الفطام ثلاثين شهراً أنّ أقل الحمل ستة أشهر. لأنّ أكثر الرّضاع أربعة وعشرون شهراً.

ويقارن السياق بين الابن المسلم البار بوالديه وبين الابن الكافر العاق لوالديه. ونحن في غنى عن القول إنّ الكافرين هم دائماً الأخسرون أعمالاً. وهؤلاء الكافرون الّذين نالوا حظهم الموفور من نعيم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلاّ النار وبئس القرار.

ولّما كان كفّار مكّة مفتونين بثرائهم وقوتهم، وكانوا ينظرون إلى فقراء المؤمنين وضعفائهم الّذين بادروا إلى تصديق القرآن الكريم، والرّسول العظيم ﷺ نظرة احتقار وازدراء؛ فقد بينت السّورة الكريمة أن لهم في الآخرة عذاب الهوان، وحذرتهم بطش الله تعالى. إنّ الحق جل وعلا قد أهلك عاداً الأشد قوة من كفار مكة، كما أهلك ما حول كفار مكة من القرى المكذبة، كسبأ في جنوب الجزيرة العربية، وثمود في شمالها.

وهكذا يكون إنذار الكافرين بتقرير هلاك الكافرين أمثالهم، والذين يفوقون كفار مكة قوة وثراءً وجاها.

وتجاه إصرار كفار مكة على شركهم وإعراضهم وصدهم عن سبيل الله تعالى، يتحول السياق إلى تبكيت كفار مكة عن طريق إقرار إسلام النفر من الجنّ بسبب استماعهم للقرآن الكريم يرتله المصطفى ﷺ ترتيلاً في صلاة الفجر إماماً بالصّحابة رضوان الله عليهم. ما أشد

العجب من إسلام الجنّ. وأعجب منه عدم إسلام كفار مكة قوم المصطفى ﷺ وعشيرته من الإنس.

وتعود السورة الكريمة إلى ما بدأت به من تقرير خلق الله تعالى السماوات والأرض، وقدرته على إعادة الخلق مرة أخرى يوم القيامة، فالسماوات والأرض يوم القيامة تتبدلان، ويحيي الله تعالى الموتى ويحاسبهم ويجازيهم ويدخل الكافرين النار والمؤمنين الجنة.

وإزاء إصرار كفار مكة على كفرهم وعنادهم يؤمر عليه الصلاة والسلام في هذه الفترة المكية بالصبر إلى أن يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً.

وهكذا تأخذ بعض الموضوعات بحجز بعض، وهكذا يتضح ترابط السورة العضوي ووحدتها الموضوعية. والله تعالى أعلم.

ثانياً

سورة محمّدٍ ﷺ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا
لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ
وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ
لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ
﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا
نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ
وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ
عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى
ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا
خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ
تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ
فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ
لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۚ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ
ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ
أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟
لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟
رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم
بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾
فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟
وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ
وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟
أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

بين يدي التفسير

(١)

"الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى أضلّ أعمالهم والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أصلح بالهم"

الآيات (١ – ٣)

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ۝ ﴾

الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وصدّوا الآخرين عن سبيل الله تعالى بصرفهم عن دين الإسلام، ومنعهم من الدخول فيه، أضل الله تعالى أعمالهم وزادها بعداً عن طريق الهدى، وانحرافاً عن سبيل الاستقامة. والذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وعملوا الصالحات دليلاً على إيمان القلب ونطق اللسان، وامنوا بما نزل على محمد ﷺ من قرآن مجيد ، وهو الحق الموحى به من ربهم جلّ وعلا كفّر عنهم سيئاتهم، ومحا ذنوبهم، وأصلح في الحياة الأولى حالهم، وأحياهم الحياة الطيبة فيها، وأصلح في الحياة الأخرى حالهم، فأدخلهم جنات النعيم. ذلك الإضلال لأعمال الكافرين، والإصلاح لحال المؤمنين بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل بإغواءٍ من الشيطان الرجيم، وهوى من النفس الأمارة بالسوء، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم جلّ وعلا الموحى به

إلى محمد ﷺ . في مثل هذه الطريقة التي يبين الحق جلّ وعلا فيها صفة كلّ من الفريقين يضرب الله تعالى للنّاس أمثالهم، ويبين أشكالهم، ويعين أوصاف كلّ فريق، كي يكون النّاس على بيّنة من أمرهم، فيعرفوا صفات الكافرين فيبتعدوا عنهم، ويعرفوا نعوت المؤمنين فيلحقوا بهم. وبعد ضرب السّورة الكريمة مثل الفريقين تتحول إلى أمر المؤمنين بضرب رقاب الكافرين في ميدان القتال.

(٢)

" معاملة الأسرى في الإسلام "

الآيات (٤ - ٦)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

فإذا لقيتم يا أيها الذين آمنوا الذين كفروا في ميدان القتال فاضربوا رقابهم بالسيّوف ضرباً. والمعروف أن الضّرب بالسيف يمثّل أعلى درجات التّمكن في استعمال السّلاح بحق الخصم، وأقرب حالات الدّنو من الخصم في ميدان القتال، ويندرج تحت

ذلك آلات القتال الأخرى الّتي تقتضي البعد من الخصم، مثل الضّرب بالرمح والرّمي بالنّبل. وبتطوير أدوات السّلاح وآلات القتال؛ تدخل تحت الأمر بإطارة رؤوس الكافرين من مغارسها. حتّى إذا أثخنتم أيها المؤمنون الكافرين قتلاً وجرحا، وبالغتم في إراقة دمائهم حتى عادت ثخينة وجامدةً بعد سيلانها وتدفقها، وأوهنتم قواهم، وشللتم حركتهم، وأذهبتم قدرتهم على مواصلة القتال، فشدوا وثاقهم، وأحكموا أسرهم، فإما تمنون عليهم بعد ذلك منّاً، وتطلقوا سراحهم دون مقابل، وإما تطلقون سراحهم مقابل أخذ الفداء منهم. والمعروف أن المصطفى ﷺ منّ على بعض الأسرى، وأخذ الفداء من بعضهم الآخر. ووراء ذلك فعل المصطفى ﷺ حالين أخريين هما الاسترقاق والقتل. والمعروف أن الحقَّ - جلّ وعلا - عاتب المصطفى ﷺ والمؤمنين على أخذ الفداء من أسرى بدر، وكان الأَوْلَى عند الله تعالى قتل الأسرى في أولى معارك الإسلام الفاصلة مع الكافرين في يوم بدر، يوم الفرقان، كيلا تقوم للكفر بعد ذلك قائمة. ويلاحظ في هذه الآية الكريمة من سورة محمد ﷺ التي نزلت قبل غزوة الأحزاب التي كانت في شهر شوّال من السّنة الخامسة من الهجرة أو بعدها، يلاحظ أنّ الفداء يتقدّم على القتل والاسترقاق، ويتقدم المنّ على الحالات جميعها. وهكذا يكون الفداء فضلاً وقد كان مفضولاً، ويكون القتل مفضولاً وقد كان فاضلاً. والمعروف أن من حقّ الإمام أن يختار ما فيه المصلحة للمسلمين من الحالات الأربع الّتي يُعامل بها الأسير في الإسلام. إن الخصوم إذا منوا على أسرانا منّنا على أسراهم، وإذا أخذوا الفداء أخذنا، وإذا استرقوا أسرانا استرققنا أسراهم، وإذا قتلوا أسرانا قتلنا أسراهم. وبهذا يكون الخصوم هم المسؤولين عن فتح باب الرّق في الإسلام. والمعروف أنّ الإسلام شرّع للعتق و لم يشّرع الرّق الّذي كان قانوناً عالمياً. وقد عالج الإسلام الرّق كعادته في معالجة سائر الأمراض المتغلغلة في أحشاء المجتمع آنذاك كالخمر والرّبا والميسر وما إلى ذلك. وإنما لم يحرم

الإسلام الرّق بصريح اللّفظ لَما حرّم الخمر والرّبا والميسر، لأن الخصوم كانوا يسترقّون أسرى المسلمين، وقد عالج الإسلام مسألة الرّق بحكمته، فلم يبق في ديار الإسلام مسترقاً واحداً. والمعروف أن المسلمين يدعون الآخرين إلى اعتناق الإسلام كي يكونوا إخوانهم، وإلاّ دفعوا الجزية، وهى مبلغ زهيد من المال يدفعه من أصرّ على البقاء على دينه مقابل الزّكاة الّتي تؤخذ من المسلمين، ومقابل حماية المسلمين له. وفى حال الامتناع عن دفع الجزية؛ يُنْذَر القوم ثلاثة أيام باختيار الإسلام، أو دفع الجزية وإلاّ كان القتال في اليوم الرّابع. ووقتها يبذل المسلمون كلّ نَفْسٍ ونفيسٍ في سبيل الله تعالى.

ويظل القتال وإثخان الخصوم بالجراح حتّى تضع الحرب أوزارها وأثقالها وينتهي القتال. الأمر ذلك ولو يشاء الله تعالى لانتصر منهم دون أن تقاتلوهم، ولكنّ الله تعالى لم يشأ ذلك ليختبر بعضكم ببعض، فيظهر الطّائع والعاصي، ويتخذ منكم شهداء سعداء. والذين قتلوا في سبيل الله تعالى فلن يضلّ الله تعالى أعمالهم ولن يبطلها، بل سيهديهم إلى ما ينفعهم ويصلح حالهم، ويدخلهم يوم القيامة الجنة عرّفها لهم، فهم أهدى الخلق إليها وأعرفهم بها.

(٣)

"الله تعالى مولى الّذين آمنوا وثوابهم الجنة، والّذين كفروا لا مولى لهم وعقابهم النّار"

الآيات (٧ - ١٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ۝١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥ ﴾

المطلوب من الذين آمنوا أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى بالسّنان واللّسان، وبكلّ وسائل القتال، وإن الحقّ جلّ وعلا يقول لهم بصريح اللّفظ : إنكم أيها المؤمنون إن تنصروا الله تعالى ينصركم في كلّ المعارك، ويثبت أقدامكم في كلّ المواطن. أما الّذين كفروا فتعساً لهم، ولتزّل بهم الأقدام، وليسقطوا لليدين وللفم، وكما أتعسهم الله تعالى وأشقاهم أضل أعمالهم، وزادها ضلالاً إلى ضلالهم، وزادهم عمى بصيرة إلى عماهم. إنّ إتعاس الله تعالى الكافرين وإضلالهم بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله تعالى على حبيبه ﷺ من قرآن مجيدٍ، فأحبط عزّ وجلّ أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام، لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى، ففقدت شرط الإخلاص، فكيف بأعمالهم غير الصّالحة بمقياس الإسلام. هلاّ اعتبر كفّار مكة في أثناء سيرهم في الأرض في رحلتي الشّتاء والصّيف مثلاً؛ فنظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم من الكافرين، كثمود في شمال الجزيرة العربية، وسبأ في جنوب الجزيرة العربيّة. لقد دمّر الله تعالى عليهم منازلهم وأبادهم عن بكرة أبيهم، وللكافرين اللاّحقين أمثال عقوبات السّابقين إن لم يعتبروا ويتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً. ذلك النّصر للمؤمنين والهلاك للكافرين بسبب أن الحقّ جلّ وعلا وليُّ الّذين آمنوا وناصرهم، وأن الكافرين لا ولي لهم ولا ناصر.

وكَما كان للمؤمنين الحياة الطيّبّة في الأولى، وكان للكافرين المعيشة الضّنك الضّيقة، كان للمؤمنين في الآخرة نعيم الجنّة وللكافرين شقاء النّار. إنّ الله سبحانه وتعالى يدخل الذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّات تجري من تحت أشجارها وقصورها أنواع الأنهار. والّذين كفروا يتمتّعون في هذه الحياة الدّنيا، ويأكلون كما تأكل الأنعام الّتي لا تشبع والنّار مثوىً لهم ومأوًى ومسكن.

وأنت أيها الرّسول الكريم والنبّي العظيم كم من قريةٍ هي أشد قوة من قريتك الّتي أخرجتك بإذن الله تعالى، وأكثر عدداً وعدّةً وعتادا من كفّار مكّة الّذين أرغموك على الهجرة إلى المدينة المنّورة بإذن الله تعالى، قد أهلكناهم فلا ناصر لهم ولامعين، ومضوا كأمس الدّابر، مثل عادٍ في الجنوب، وثمود في الشّمال. هلاّ اعتبر كفّار مكّة بإهلاك الله تعالى الكافرين السّابقين، وهلاّ اتّعظوا بآي الذّكر الحكيم الذّي ينذرهم من أن يكون مصيرهم كالغابرين! أين عقول كفّار مكّة الّتي عطّلوها وإنّ أقل تكفير حرّ سليمٍ يبين أنه لا يستوي من كان على بيّنةٍ من ربّه عزّ وجلّ فيتبع القرآن الكريم والنّبي العظيم ﷺ ومن زيّن الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمارة بالسوء عمله السّيئ فرآه حسناً، واتبع هواه واتّخذ هذا الهوى معبوده الّذي يشركه مع الله تعالى في العبادة.

وكما لا يستوي من عمل بعمل أهل الجنّة فدخلها ومن عمل بعمل أهل النّار فدخلها لا تستوي حياة الفريقين يوم القيامة، فريق أهل الجنّة وفريق أهل السعير. إن صفة الجنّة الّتي وعدها الله تعالى المتّقين فيها أنهارٌ من ماءٍ غير متغيرّ الرّائحة ولاما وراء ذلك من طعمً أولون، وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه ولاما وراء ذلك، وأنهار من خمرٍ لذيذة الطّعم للشّاربين وما وراء الطّعم من رائحةٍ ولونٍ وما إليهما، وأنهار من عسلٍ مصفى من أدنى شوائب العسل كالشمع مثلاً. ولهم وراء ذلك مغفرة من ربّهم عزّ وجّل لذنوبهم. هل أصحاب النّعيم هؤلاء كمن هم خالدون في نار جهنّم، وسقوا ماء شديد الحرارة لدرجة الغليان فقطع أمعاءهم فخرجت من أدبارهم.؟ لا يستوي أصحاب الجنّة وأصحاب النّار في الآخرة ، كما لا تستوي أعمال المؤمنين والكافرين في الأولى.

ولا يكاد العجب في مجال إعجاز القرآن الكريم ينتهي من التّرتيب الرّائع لأنهار الجنّة الأربعة، ذلك التّرتيب الذّي ينّبه إلى التّرتيب ذاته في الدنيا من حيث الكثرة ، فثمّة

الماء، فاللّبن، فالخمر، فالعسل. هذا إلى التّوزيع الرّائع للصّفات الثّلاث المتلازمة، الرّائحة، والطعم، واللون، على الماء، فاللّبن، فالعسل، وفي وصف خمر الجنّة بأنها كاملة اللذّة، فكأنما هي اللّذة ذاتها، إثبات لبقية نعوت الخمر وراء الطّعم، من رائحة، ولون، وأثر حسن على العقل والجسم وكلّ هذه النّعوت عكس صفات خمر الدّنيا التّي حرمها الحّق جلّ وعلا على أمّة الإسلام.

(٤)

"طبع الله تعالى على قلوب المنافقين، وزاد الّذين اهتدوا هدى"

الآيات (١٦ - ١٩)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

ومن هؤلاء الكافرين من يستمع إليك يا محمّد إليك وهم المنافقون حتّى إذا خرجوا من عندك وفارقوا مجلسك قالوا للذّين أوتوا العلم من الصحابة : ماذا قال محمد السّاعة حينما كنّا في مجلسه فإنا لم نفهم شيئاً. إن أولئك المنافقين هم الّذين ختم الله تعالى على قلوبهم؛ فلا يستطيع نور الإيمان أن يتّخذ منها مستقرّاً، أو أن يجد إليها سبيلا. وقد اتبع المنافقون أهواء أنفسهم الأمّارة بالسّوء والمنقادة للشّيطان الرّجيم. وإذا كان المنافقون قد زاد الله تعالى قلوبهما انصرافاً عن الهدى فإنّ المؤمنين الذّين جاهدوا في الله تعالى واهتدوا زادهم الله تعالى هدى، وآتاهم تقواهم التّي تحثّهم على استباق الخيرات واجتناب السيئات. وإنّ هؤلاء المنافقين ومن لفّ لَفَّهُم من إخوانهم الكافرين المنصرفين عن الإيمان والمقبلين على الكفر هل ينتظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم فجأة، فقد جاء فعلاً أشراط السّاعة وعلاماتها ومنها بعثة محمد ﷺ ، فكيف ينفع أولئك المنافقين التّذكّر إذا جاءت السّاعة وقد فات الأوان، وكيف يفيدهم الإيمان وقد قامت السّاعة فعلاً. إنّ على الكافرين بكلّ فئاتهم أن يبادروا إلى الإيمان وعمل الصّالحات وأن يلحقوا بالمؤمنين وأن ينطلقوا من قاعدة العلم الصّحيح بأنّه لا معبود بحقٍّ إلاّ الله تعالى. فاعلم أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أنّه لا إله إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات كي تتأسى بك أمّتك. والله سبحانه وتعالى يعلم متقلّبكم وأعمالكم بالنّهار، ويعلم مثواكم ونومكم بالليّل وما تعلمون فيه. إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء.

(٥)

" المؤمنون شجعان، والمنافقون جبناء، وحثٌّ على تدبّر القرآن"

الآيات (٢٠ - ٢٤)

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

وإنّ المؤمنين الّذين يفهمون معنى ما يسمعون من النّبيّ ﷺ قرآناً كريماً، وسنّةً مطهّرةً مبيّنة لمعنى القرآن الكريم يحرصون على بذل النّفس والنّفيس ابتغاء مرضاة الله تعالى. إنّهم يقولون هلاّ نزّلت سورةٌ من القرآن الكريم كاملة تأمر بجهاد أعداء الله تعالى من الكفّار. فإذا أنزلت سورة محكمة واضحة المعنى ظاهرة الدّلالة، لا مجال معها للّيّ عنق النّصّ أو اتباع ما تشابه منه، وذكر فيها القتال ذكراً عابراً، رأيت يا محمّد الّذين في قلوبهم مرض النّفاق ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من خوف الموت، المغميّ عليه من حضور أسبابه، فوجوههم مصفرة، وفرائصهم تضطرب، وعيونهم لا تطرف

شاخصة صوب المصطفى ﷺ الّذي يجري على لسانه ذكر القتال وكأنّه السّيّاف الّذي يُطير في كلّ لحظةٍ رأس كلّ جبانٍ من هؤلاء المنافقين. أولى للمنافقين كلّ هلاك، وأقرب لهم كلّ بلاء. طاعةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ وقول معروفٌ بالسّمع أفضل لهم وأمثل. فإذا عزم الأمر وجدّ الجدّ ووجب القتال؛ كرهه المنافقون وشقّ عليهم. فلو صدق المنافقون الله تعالى وكان فعلهم موافقاً لما يعلنون من قولٍ لكان خيراً لهم وأجمل بهم.

وهكذا لا يأتي من المنافقين خيرٌ للإسلام مطلقاً. فلعلّكم أيّها الكافرون الّذين تعلنون الكفر، والّذين تضمرون الكفر وتتظاهرون بالإسلام، إن أدبرتم بأجسادكم بعد إدباركم بقلوبكم؛ أن تفسدوا في الأرض بإهلاك الحرث والنّسل وتقطّعوا أرحامكم كفعلكم أيام الجاهليّة الجهلاء. إن الّذين يفعلون ذلك هم الذين طردهم الله تعالى من رحمته. فأصّم أسماعهم عن سماع صوت الحقّ سماع قبول، وأعمى أبصارهم وقلوبهم الّتي في صدورهم وبصائرهم فلا يجد نور الهدى سبيلاً إلى تلك القلوب ولا مستقرّا.

أفلا يتدبّر أولئك الكافرون بنوعيهم هذا القرآن الكريم ويتأملون آي الكتاب العزيز، كي تكون آذانهم سامعة، وأعينهم مبصرة. أم أنّ على قلوب القوم أقفالها الخاصّة بها المقصورة عليها. الحقيقة إنّ على قلوب القوم الأقفال الخاصّة بها ، المقصورة عليها، الّتي استعصت على كلّ محاولات آي الذّكر الحكيم أن تنفذ إليها وتستقّر فيها.

(٦)

" المنافقون يطيعون الكفّار ويعرفون بلحن القول "

الآيات (٢٥ - ٣٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

المنافقون الّذين يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر مرتدّون على الحقيقة. إنهم ذاقوا لحظة من اللّحظات حلاوة الإيمان، ثمّ غلبت عليهم شقْوتهم - والعياذ بالله- وكانت مودّتهم قويّةً للكافرين. يقرّر السّياق أنّ الّذين ارتدوا على أدبارهم إلى الكفر من بعد ما تبين لهم الهدى؛ إنّما زيّن لهم الشّيطان الرّجيم سوء العمل، وأوهمهم بطول الأمل والأجل، وليس لدى اللعين سوى الوعود المعسولة، والأوهام المأمولة. ذلك التّمكن للّعين من رقاب المنافقين وظهورهم، بسبب أنّهم قالوا للكافرين إخوانهم الّذين كرهوا ما نزّل الله تعالى من قرآنٍ كريمٍ على محمّدٍ ﷺ ؛ سنطيعكم في بعض الأمر الّذي نقوى عليه ضمن دائرة مكرنا بمحمّد وأصحابه. والله تعالى يعلم إسرار المنافقين ومن باب

الأوْلى أن يعلم إعلانهم، فلا يخفى على الله تعالى شيء في الأرض ولا في السّماء. فكيف حال أولئك المنافقين إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً إذا توفّتهم ملائكة العذاب يضربون وجوهم الّتي أقبلوا بها على الباطل، وأدبارهم الّتي صرفوها إلى الحقّ. ذلك الضّرب المهين، والذّلّ المكين بسبب أنّ المنافقين اتّبعوا ما أسخط الله تعالى بإقبالهم بتلك الوجوه البشعة على ما يغضب الله تعالى بباعث الكره لما يرضي الله تعالى؛ فأحبط الله تعالى أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى. أم حسب أولئك الّذين في قلوبهم مرضٌ أن الله سبحانه وتعالى، لن يهتك أسرارهم، ولن يكشف أحقادهم الشّديدة ضدّ الإسلام وأهله. وإنّا لو نشاء فضحهم على رؤوس الأشهاد لأريناكهم يا محمد على حقيقتهم ولعّريناهم فلعرفتهم بعلامات نفاقهم، ولكنّا لم نشأ ذلك. ولتعرفنّهم يا محمّد بصفةٍ سيّئة لا يستطيعون سترها ولو حرصوا، لأنها أبلغ ما يدلّ على ما تكنّه ضمائرهم. وهذه الصّفة هي لحن القول وفلتات الألسنة.

وفي مجال إعجاز القرآن الكريم لا يكاد العجب ينتهي من بلاغة القول : لحن القول، وإصابته المحزّ. وقد حاولنا أن نرصد تطور دلالة اللّفظة : لحن. وقد تبين أنها تفيد الميل باللّفظ عن صحيح معناه، أو بالمعنى عن صحيح مغزاه. وهذا الميل يتعّمده المتكلم، ويتّفق بشأنه مع السّامع الّذي ينبغي أن يكون فطناً. ومن هنا كان من معاني لفظة لحن الفطنة، كي يدرك السّامع الفحوى أو المعنى. وبذلك أفاد لحن القول في الشّرّ، وكذلك في الخير ، ثلاثة معان، الميل، والفطنة، والفحوى.

وكذلك راعينا في السّياق التّدرّج اللّطيف في دفع المعاني من الخفاء إلى الظهور. إن الله تعالى الّذي يعلم الأسرار وما تخفي الصّدور لو شاء لأرى النّبيّ ﷺ علامات المنافقين الخفيّة، ولكنّه جلّ وعلا لم يشأ ذلك، إنما شاء أن يُعْرَفَ المنافقون بلحن القول. والله تعالى يعلم أعمال المنافقين وأعمال غيرهم. وهكذا يجمع السّياق في نسق

بين أضغان قلوب المنافقين، وعلاماتهم الخفيّة، وأقوالهم، و أعمالهم. ولا يخفى التّدرّج اللّطيف في التّحوّل المطّرد من الخفاء إلى الظّهور.

(٧)

"ثواب المؤمنين الطّائعين، وعقاب الكافرين العاصين"

الآيات (٣١ - ٣٤)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾

تحدّثت السّورة الكريمة في مواضع متعدّدة عن الكافرين والمنافقين؛ وعن المؤمنين الّذين هم في صراع دائم مع الفريقين السّابقين. يتحوّل السّياق إلى مخاطبة المؤمنين وإخبارهم بأن الله تعالى يختبرهم ويبتليهم بصنوف الاختبار وأنواع البلاء، وفي المقدّمة الصّراع الدّائم مع الكافرين والمنافقين حتى يظهر المجاهدون من المؤمنين والصّابرون على

صنوف البلاء، ويعلم بالتّمحيص والابتلاء حقيقة أخبارهم ومدى موافقة أفعالهم لأقوالهم. أمّا الّذين كفروا وصدّوا الآخرين عن سبيله عزّ وجلّ. بمنعهم من دخول دين الإسلام، وخالفوا الرّسول ﷺ وحاربوه من بعد ما تبّين لهم الهدى، ووضح لهم الطّريق المستقيم فإنّهم لن يضّروا الله تعالى مطلقاً في أي زمان ومكان، وسيبطل الله تعالى ثواب أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى. وأنتم أيها المؤمنون المجاهدون في سبيل الله تعالى، أطيعوا الله تعالى طاعةً مطلقة، وأطيعوا رسوله ﷺ طاعةً مطلقةً، ولا تبطلوا أعمالكم الصّالحة بالمعاصي. أمّا الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى ثم ماتوا وهم كفّار ولم يستفيدوا من إمهال الله تعالى لهم فإنّه عزّ وجلّ لن يغفر لهم لأن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وقد ظلّ القوم مشتركين حتّى توفاهم الله تعالى، ولم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً.

(٨)

" حث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس وإنذار المتثاقلين بالاستبدال بهم غيرهم "

الآيات (٣٥ - ٣٨)

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

ولّما كان جهاد الكافرين بكلٍّ من النّفس والنّفيس فإن آخر أقسام السّورة الكريمة يحثّ المؤمنين على بذل النّفس والنّفيس. إن السّياق يخاطب المؤمنين ويقول لهم : أيُّها المجاهدون في سبيل الله تعالى لاتهنوا ولا تضعفوا ولا تجبُنُوا ولا تكونوا السّابقين فى الدّعوة إلى المسالمة وأنتم الأعلون، والكافرون هم الأدنون، والله تعالى معكم بالعون والنّصر، لأنّه عزّ وجلّ هو مولاكم ، والكافرون لا مولى لهم. والله تعالى لن ينقصكم ثواب أعمالكم الصّالحة الّتي أردتم بها وجه الكريم جلّ وعلا.

وهذه الحياة الدّنيا إنّما هي لعبٌ حينما لا يراد وجه الله تعالى بالأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام، وهى لهو حينما تكون طالحة. وإن تؤمنوا أيّها النّاس وتتقوا ربّكم عز وجلّ بفعل الأوامر واجتناب النّواهي يؤتكم ثواب أعمالكم ولا يسألكم كلّ أموالكم ولا جلّها. إن يسألكم الحقّ جلّ وعلا أموالكم فيلحّ بطلبها تبخلوا ويخرج كامن أحقادكم تجاه الإسلام. ها أنتم يا هؤلاء تُدْعون لتنفقوا في سبيل الله تعالى وفي نشر دينه وإعلاء كلمته، فمنكم من يبخل بماله. ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه الّتي حرمها ثواب الإنفاق في سبيل الله تعالى. والله تعالى هو الغنيّ وأنتم الفقراء إلى الله تعالى أيهّا الناس. وإن تتولوا وتدبروا وتنكصوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى يستبدل بكم غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم بل مجاهدين في سبيله عزّ وجلّ باذلين النّفس والنّفيس.

التّفسير

(١)

" الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى أضلّ أعمالهم، والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أصلح بالهم "

الآيات (١ - ٣)

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

أضل أعمالهم : جعل الله أعمالهم ضلالاً على غير هدى وغير رشاد، لأنّها عملت في سبيل الشّيطان وهي على غير استقامة[1].

وأصلح بالهم : وأصلح شأنهم وحالهم في الدّنيا عند أوليائه، وفى الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدّائم في جنّاته[2].

ذلك بأنّ : ذلك بسبب أنّ [3].

كذلك يضرب الله للنّاس أمثالهم : يقول عزّ وجلّ : كما بيّنت لكم أيّها النّاس فعلي بفريق الكفر والإيمان، كذلك نمثّل للنّاس الأمثال ونشبّه لهم الأشباه، فنلحق بكلّ قومٍ من الأمثال أشكالا[4].

الّذين كفروا بالله تعالى : كذبوا رسوله ﷺ ، وانكروا أن يكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، وصدّوا الآخرين عن سبيل الله تعالى، ومنعوهم بكلّ الوسائل من اعتناق دين الإسلام، أضلّ الله عالي أعمالهم، وجعلها على غير هدى، وزاد الله تعالى قلوبهم انصرافاً عن الرّشاد، وبصائرهم عمًى على عماها. والذين آمنوا بالله تعالى وحده

---

(1) تفسير الطّبري ٢٦ / ٢٥

(2) تفسير الطّبري ٢٦ / ٢٥

(3) الجلالين

(4) تفسير الطّبري ٢٦ /٢٦

لا شريك له، وأفردوه بالعبادة ، وعملوا الصّالحات، وقدّموا الدّليل العملي على صحّة الإيمان وصدق اليقين، وآمنوا بما نُزّل على مُحمّد ﷺ .من قرآن مجيد بأنه كلام ربّ العالمين، وهو الحق الموحى به من ربهم عزّ وجلّ ، كفّر الله تعالى عنهم سيئاتهم، ومحا ذنوبهم، وأصلح بالهم، وأحسن حالهم، في الأولى والآخرة، فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة.

إن إضلال الله تعالى أعمال الكافرين الصادين عن سبيل الله تعالى، وإصلاح الله تعالى حال المؤمنين الذين يعملون الصالحات بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذي أنزل من ربهم عز وجل على محمد ﷺ . في مثل هذا التّبيين لحال كلٍّ من المؤمنين والكافرين يبّين الله تعالى للنّاس صفة كلٍّ من الفريقين كيِ يكون النّاس على بيّنةٍ من أمرهم، وكي يزداد المؤمنون استمساكاً بطريق الهدى والفلاح، وكي يهجر الكافرون طريق الباطل و الخسار، ويتحوّلوا إلى طريق الحقّ والنّجاح.

(٢)

" معاملة الأسرى في الإسلام "

الآيات (٤ - ٦)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

فضرب الرقاب : ضرب مفعول مطلق لفعلٍ محذوف وقد ناب المصدر عن فعله بالأمر[١] أي فاضربوا رقابهم، أي اقتلوهم[٢].

حتّى إذا أثخنتموهم : الثّاء والخاء والنّون يدل على رَزانة الشّيء في ثِقَل. تقول : ثَخُنَ الشّيء ثَخانةً. والرّجل الحليم الرّزين ثخين. والثّواب المكتنز اللّحمة والسّدي من جَوْدة نسجه ثخين. وقد أثخنته أي أثقلته. وقال قوم : يقال للأعزل الذّي لا سلاح معه ثخين. وهو قياس الباب، لأنّ حركته تقل خوفاً على نفسه[٣] يقال : ثَخُن الشّيء فهو ثخين إذا غَلُظ فلم يسلْ ولم يستمرَّ في ذهابه[٤]. أي حتّى إذا بالغتم في قتل المشركين وقهرِهم غلبةً وقسرا، يقال منه : أثخن فلانٌ في هذا الأمر إذا بالغ فيه، وحكي : أثخنته معرفةً بمعنى قتلته معرفة[٥].

الوثاق : الوثاق بفتح الواو والوثاق بكسرها اسمان لما يوثَق به الشّيء[٦]

---

[١] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٣٧

[٢] تفسير الطّبري ٢٦ / ٢٦ والجلالين

[٣] معجم مقاييس اللّغة لابن فارس " ثخن" ١ / ٣٧٢

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني " ثخن " ١ / ١٠٢

[٥] انظر تفسير الطّبري ١٠ / ٣٠

[٦] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " وثق " ٢ / ٦٦٣

فإمّا مَنّا : الفاء عاطفة. إمّا حرف تخيير. مَنّا : مفعول مطلق لفعلٍ محـــذوف أيِ : فإمّا أن تمنّوا منّاً [1] أو فإمّا تّمنّون منًّا[2]

حتّى تضع الحرب أوزارها : أوزار الحرب واحدها وِزْر : آلتها مـــن الـــسّلاح[3] والوزر بكسر الواو : الثِّقل[4]

ذلك : اسم إشارة في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر ذلك[5]

فإذا لقيتم أيّها المؤمنون الّذين كفروا في ميدان القتال فاضربوا رقـــابهم بالـــسّيوف ضرباً يطير رؤوسهم من على مغارسها بالغوا في قتلهم . ومعروف أنّ القتل بالـــسّيف يمثّل أعلى مراتب التّمكن من الخصم بالنّسبة لسائر آلات القتال الأخرى. ويلي الضّرب بالسّيف الطّعنُ بالرُمح ثمّ الرّمي بالسّهم. وتندرج تحت ضرب الرّقاب بالسّيوف بقيّـــة الآلات الأخرى.

حتّى إذا أثخنتم أيّها المؤمنون الكافرين بالجراح، وبالغتم في إيصال الأذى إلـــيهم، وإسالة دمائهم، واستنفاد طاقتهم ، وشلّ حركتهم، وإرغامهم على الخضوع والخنوع والاستسلام، فشدّوا وثاق أسراهم، وأحكموا قيودهم وأغلالهم. فإمّا تَمنّون علـــيهم بعد ذلك مَنّا بإطلاق سراح الأسرى دون مقابل، وإمّا أن تأخذوا منهم الفداء من مالٍ أو سواه مقابل إطلاق سراح الأسرى، إلى أن تضع الحرب أثقالها، وتحطّ أوزارها.

الأمر ذلك ولو يشاء الله تعالى لانتصر منهم ولأهلكهم بعـــض جنـــده الّـــذين لا يعلمهم إلاّ هو جلّ وعلا، ولكن فعل عزّ وجلّ ذلك ليمتحن بعضكم ببعض، ويظهـــر

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٣٧

[2] الكشّاف ٣ / ١٢٧

[3] مفردات الرّاغب الأصفهاني " وزر " ٢ / ٦٧٦

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني " وزر " ٢ / ٦٧٥

[5] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢ / ٣٨

مدى امتثالكم لأوامره عزّ وجلّ، ويثيب المؤمنين الّذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ويعذب الكافرين والصادّين عن سبيل الله تعالى. والّذين قُتلوا في سبيل الله تعالى وأكرمهم جلّ وعلا بالشّهادة، فلن يضلّ أعمالهم ولن يبطلها، بل يزيدهم هدىً ويجزل لهم المثوبة. إنّ هؤلاء الشهداء السّعداء سيهديهم إلى ما ينفعهم، ويصلح حالهم ، ويترل السّكينة عليهم، ولا يحزنهم الفزع الأكبر بسَوْق الكافرين إلى النّار، ويدخلهم الجنّة عرّفها عزّ وجلّ وبيّنها لهم، فهم أهدى الخلق إليها، وأعرفهم بها.

والحقيقة إنّ الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم الّتي تحدّث عن معاملة الأسرى في الإسلام. وبهذه المناسبة نحن نودّ أن نتحدّث في بعض المسائل المتعلّقة بالموضوع.

لقد تحدّثت الآية الكريمة عن حالتين من حقّ الحاكم المسلم أن يعامل الخصوم بأيّ منهما، وهاتان الحالتان هما المّن، وذلك بإطلاق سراح الأسرى دون مقابل، والفداء، وذلك بإطلاق سراح الأسرى بمقابل. وقد فعل المصطفى ﷺ كلاً من الحالتين كما فعل في حالتين أخريين هما الاسترقاق والقتل. وبذلك يكون من حقّ الإمام أن يعامل أسرى الخصوم بأيّ حالةٍ من حالاتٍ أربع يرى مصلحة الأمّة في العمل بها. وهذا الكلام الموجز بحاجةٍ إلى شيءٍ من التّفصيل.

مكث المصطفى ﷺ والمسلمون في مكّة المكّرمة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، كانت الكلمة فيها للمشركين، وقد عانى المصطفى ﷺ والمسلمون كثيراً من ظلم المشركين واضطهادهم. ولم يأذن الله تعالى للمصطفى ﷺ وللمسلمين في الفترة المكّية بالقتال. وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة مرّتين اثنتين في أثناء تلك الفترة ، ثمّ كانت الهجرة الأخيرة إلى المدينة المنّورة. وقد توّجت الهجرة الثّالثة بهجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة. وأوّل إذنٍ للرّسول ﷺ في القتال كان لا ثنتيّ عشرة ليلةً خلت من شهر

صفر في السّنة الثّانية من الهجرة وذلك في الآيات الكريمات من التّاسعة والثّلاثين إلى الحادية والأربعين من سورة الحجّ[1]، وقد نصر الله تعالى نصراً عزيزاً حبيبه ﷺ والمسلمين على المشركين في يوم بدرٍ، يوم الفرقان الّذي كان يوم الجمعة السّابع عشرة من شهر رمضان المبارك في السّنة الثّانية من الهجرة[2]، وقد قُتِل من المشركين سبعون وأُسر سبعون. ولم يكن ثمّة وحيٌ للمصطفى ﷺ يتعلّق بمعاملة الأسرى، فكان ثمّة مجالٌ للاجتهاد.

وإليك هذا الحديث الّذي رواه عبّاس رضي الله تعالى عنهما عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه [3]، واللّفظ لمسلمٍ[4] قال ابن عبّاس : فلمّا أسروا الأُسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : ما تَرون في هؤلاء الأُسرى؟ فقال أبو بكر : يا نبيّ الله، هم بنو العّم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّةً على الكفّار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا بن الخطّاب؟ قلت : لا، والله، يا رسول اللّه، ما أرى الّذي رأى أبو بكر. ولكّني أرى أن تمكّنا فنضربَ أعناقهم. فتمكّن عليّاً من عَقيل فيضربَ عنقه. وتمكّنّي من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه. فإنّ هؤلاء أئمّة الكفر وصناديدها[5] فَهَوي[6] رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت. فلّما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت : يا رسول الله، أخبرني مِنْ أيّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً

---

[1] انظر ص ١١٢ هامش ٧٦ نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين للشّيخ محمّد الخضر

[2] تفسير ابن كثير ٤ /٩

[3] أسباب النزول للواحدي النّيسا بوري ٢٧٥ وصحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ٣ / ١٣٨٣ حديث رقم ١٧٦٣ وتفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٨ و ٤ / ٣٢

[4] صحيح مسلم ٣ / ١٣٨٥

[5] صناديدها : أشرافها ، الواحد صنديد بكسر الصّاد

[6] أي أحبّ ذلك واستحسنه

بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ : أبكي للّذي عَرَض عليّ أصحابك مِنْ أخذهم الفداء . لقد عُرِض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشّجرة (شَجرة قريبة من نبيّ الله ﷺ) وأنزل الله عزّ وجلّ[1]

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم .

من بيان سبب نزول الآيات الكريمات الثّلاث في معاملة الأسرى يتبيّن أنه في هذه الفترة المبكّرة بعد الهجرة؛ كان قتل الأسرى أولى عند الله تعالى من أخذ الفداء. والمعروف أنّه أنزل بالمدينة سورة البقرة ثمّ الأنفال[2].

وبشأن سورة محمّد ﷺ الّتي تحدّثت آيتها الكريمة الرّابعة عن معاملة الأسْرى فى الإسلام. هي نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب الّتي كانت في السّنة الخامسة من الهجرة وفق الرّأي الرّاجح[3] أو بعد غزوة الأحزاب[4].

مّما سبق يتبيّن أنّ الفداء الّذي كان مفضولاً في غزوة بدر بالقياس إلى قتل الأسرى، أصبح هو الفاضل بعد ذلك كما تبيّن من الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد عليه الصلاة والسّلام.

---

[1] سورة الأنفال ٦٧ – ٦٩

[2] الإتقان ١ / ٤٣

[3] تأملات في سورة محمّد ﷺ ١٨ وتأمّلات فى سورة الأحزاب ٢١

[4] الإتقان ١ / ٤٣ .

ونحن حينما نتحدّث في مسألة معاملة الأسرى في الإسلام؛ بحاجة إلى أن نبيّن ابتداءً أمراً غايةً في الأهمّية هو أنّ جزيرة العرب باعتبارها مهد الإسلام، وباعتبار العرب مادّة الإسلام الأولى، لم يكن يُقْبَل منهم إلاّ الإسلام أو القتال.

عن ابن عبّاس، قوله ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

قال : الفداء منسوخ نسختها :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1]

وعن مجاهد : ليس اليوم منٌّ ولا فداء وإنّما هو الإسلام أو ضرب العنق[2]

فإذا تجاوزنا جزيرة العرب إلى خارجها تبيّنا هدى الإسلام في معاملة الخصوم والخطوات الّتي يجب أن يلتزم بها المسلمون في الدّعوة إلى الله تعالى. إنّ أولى الخطوات دعوةِ الآخرين إلى اعتناق دين الإسلام وبذلك يكونون إخوةً للمسلمين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فإذا أصرّ الآخرون على الاستمساك بدينهم طُلِب منهم دفع الجزية. وهى مبلغٌ ضئيلٌ من المالُ يُدفَع مقابل أخذ الزّكاة من المسلمين، شريطة أن يقوم المسلمون بحماية القوم وإلاّ ردّوا الجزية. فإذا أصرّ الآخرون على الاستمساك بدينهم والامتناع عن دفع الجزيّة، أنذرهم المسلمون بأنّهم سوف يقاتلونهم بعد ثلاثة

---

[1] سورة التّوبة ٥

[2] الكشاف ٣ / ١٢٨

أيّام إن هم لم يسلموا أو لم يدفعوا الجزيّة وإن هم أصروا على الاستمساك بدينهم. ووقتها يبذل المسلمون النفس والنفيس في سبيل الله تعالى.

وقد تبيّن أنّ الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد ﷺ تتحدّث عن حالين هما المنّ والفداء، مقدّمةً المنّ على الأسير دون مقابل دليلاً على أنّ المنّ هو الأفضل من أخذ الفداء. كما تبيّن أنّ المصطفى ﷺ بشأن الأسرى قد طبق هاتين الحالين كما طبّق حالين أخريين هما الاسترقاق والقتل. وبذلك يكون من حقّ الإمام المسلم أن يطبّق بشأن الأسرى الحال الّتي يرى فيها تحقيق المصلحة العامّة.

إنّ الخصوم إن منّوا على أسرانا فأطلقوا سراحهم دون أخذ فداء، فمن حقّ الإمام المسلم أن يعاملهم بالمثل، فيطلق سراح الأسرى منّاً دون أخذ فداء. وإنّ الخصوم إذا أخذوا منّا الفداء أخذنا منهم الفداء، وإن استرقّوا أسرانا استرققنا أسرهم، وإن قتلوا أسرانا قتلنا أسراهم.

وهكذا يتبيّن أنّ الخصوم هم المسؤولون عن فتح باب الرّق، فإنّه لارقّ في الإسلام إلاّ عن طريق أسرى الخصوم الّذين استرقّوا أَسْرانا.

ولعلنّا تبيّنا الحكمة من عدم تحريم الإسلام الرّق بصريح اللّفظ على غرار الخمر والرّبا والميسر، لأنّ الخصوم كانوا يسترقون أسرى المسلمين وبذلك يكون الخصوم هم المسؤولين عن فتح باب الرّق إن هم استرقّوا — لا سمح الله — أسرى المسلمين.

إنّ لنا نحن المسلمين أسوةً حسنة في المصطفى ﷺ الّذي عامل أسرى الخصوم بكلّ الحالات الأربع بناءً على ما تقتضيه المصلحة العامّة.

قال الإمام الشّافعي : الإمام مخيّر بين قتل الأسير، أو المنّ عليه، أو مفاداته، أو استرقاقه[1]

---

[1] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٠